الفصل الرابع عشر
عمر الخيام وأدب التمرد

لم يكن الخيام ملحداً أو كافراً أو لا أدرياً- أعوذ بالله- ولكن كان له نمط شخصية سيدنا إبراهيم عليه السلام - يريد أن يعرف. ومن تحصيل الحاصل أن نحكى قصة هذا النبى الذى كان أمة وحده. نمط شخصيته هو نمط الباحث عن الحق والحقيقة، والحائر الذى يتطلع إلى السماء فى دهشة وتأمل وتفكر وتدّبر- وحاله كحال حىّ بن يقظان لابن طفيل، نشأ لا يعرف إنسياً، ولا يدرى له رباً، ولكنه اعتاد أن يتصفح السماء والكواكب وحركاتها، وجميع الأجسام وضروب الأفلاك، وتحصّل له الإدراك أن الكون كله كشخص واحد فى الحقيقة، ويحتاج إلى فاعل مختار، وتساءل هل هو حَدَث بعد أن لم يكن، وخرج إلى الوجود بعد العدم؟ أو هو كان موجوداً فيما سلف ولم يسبقه العدم؟ وأسئلة أخرى كثيرة، ومقدمات واستنتاجات، إلى أن انتهى إلى إثبات وجود الله، وإثبات صفاته.

هكذا كان سيدنا إبراهيم، وهكذا كان عمر الخيام!

ولنراجع رسائله الفلسفية لنعرف أن ما انتهينا إليه هو الحق، ولا تثريب علينا فيه.

والخيام في كتابه **نوروزنامه** (كتاب النيروز) يبدأه فيقول: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله والشكر لله جلّ جلاله، خالق الكون، ومالك الأرض والزمان، ورازق العباد، وعالم السر والجهر. ويقول: بعون الله وحسن توفيقه..

وفى **رسالة الجبر والمقابلة** يقول - والعاقبة للمتقين، والصلاة على الأنبياء، وخصوصاً على محمد وآله الطاهرين أجمعين، والله المستعان وإليه المفزع.

وفي **رسالة الكون والتكليف** يتحدث عن: الله البارى الحىّ القيوم، الحق الأول، واجب الوجود الذى عنه وجود كل موجود، جلّ جلاله، وتقدّست أسماؤه، ولا إله غيره، الذى فاضت الموجودات عنه، منتظمة فى سلسلةالترتيب، التي افترضتها الحكمة الحقة.

ذلك إيمان الخيام إذن- لا شك فيه، والإيمان درجات، وسيدنا إبراهيم طلب أن يُريه الله كيف يحي الموتى- قال أو لم تؤمن؟ قال بَلَىَ ولكن ليطمئن قلبى (البقرة ٢٥٩)، فلما رأى ببصره اطمأن القلب مستقر الإيمان.

والخيام لم ير فمن له يُطَمئنُ قلبَه؟

وعقله كخلية النحل تتزاحم عليه الأسئلة والشكوك فمن له يُثبِّت إيمانه؟

ولعله يكون كالذى مرّ على القرية الخاوية على عروشها، وقال أنىّ يحى هذه الله بعد

موتها؟ ولقد رأى العظام كيف ينشزها الحق ثم يكسوها لحماً، وتبيّن له فآمن (البقرة ٢٥٩)، فكيف السبيل إلى ذات الإيمان؟

الأسئلة هى نفس الأسئلة، والإلحاح على المعرفة هو نفسه مع هؤلاء الباحثين عن الحق والحقيقة، وهم نسل آدم، وفيهم عن أبيهم – أراد ان يعرف فعصى وزل، وورثوا عنه نفس الداء.

والخيام ابن أبيه، ويريد أن يعرف – وهذا هو جُرمه.

ما هو العدم؟ ما هذا الموت؟ لماذا القضاء والقدر؟ لماذا نجيء اضطراراً ونرحل اضطراراً؟ ولا يجد الجواب.

ويهرب من اليأس إلى الشِعْر واجتلاء الجمال، لعله يجد الخلاص، ولكن لا خلاص.

وتزيد الذنوب حتى لتكون كالجبال– فلولا يطلعه الله على السر؟ لماذا الجحيم؟

ويطالع الموت بإمعان،ويثور لأننا ندفن فى التراب – ذل وهوان واحتقار وحِطة وامتهان! فكيف نرضى به؟ وكيف رضي به الفلاسفة والفقهاء الذين علّمونا؟ ويعلم الله أننا لم نتعلم منهم إلاّ الضلال!

ويسأل نفسه في غضب : يانفس! كيف ترضين بالدنّية داراً، تشقين فيها غربة واعتقالاً للاشيء ؟ مِزّقى اللحم والعظم إذن وعودى لعروش العلّى بدار الخلود!

ويفلسف الوجود فيشبّه الأرض برقعة الشطرنج، والأنام بالبيادق، والقضاء يلعب بنا ويلقى بالواحد تلو الآخر فى سلّة الفناء.

ويخلُص إلى أن كل شئ مسطور منذ الأزل وإلى الأبد، ولا نملك إبدال سطر بسطر، ولا حرف بحرف، وكل ما ندركه من هذا التيه أننا نجهل ونحن أطفال، ونلُحد ونحن شيوخ، بحسب ما هو مكتوب ومقدور– فلماذا يكون الحساب إذن؟

ويعلن لا فائدة من السؤال، وليس أمامنا إلا التسليم، والتوبة، وطلب المغفرة، واستجداء الرحمة، لعله يتوب علينا ويغفرلنا ويرحمنا، وهو التوّاب الغفّار الغفور والرحمن الرحيم!

*****

مفتاح شخصية الخيام إذن هو حب المعرفة، وداؤه العضال التمرد، لأنه يريد أن يعرف، فمن لم يعرف يلحقه البوار ويصيبه القلق، ويرزح عليه الهمّ، وينرى به الخوف.

وللتمرد أدب، والمتمردون أنواع، وتمرد الخيام من النوع الميتافيزيقى الذى يحكي عنه ألبير كامى (أنظر ترجمتنا للإنسان المتمرد). وهو فى حالة الخيام كما نرى تمرد المؤمن

الذى يعرف الإيمان طريقه إلى قلبه فيريد أن يعرفه بعقله، ويبدأ يناقش، ويجد صوته فى حضرة الله، ويتجرأ فيسأله ويطلب إجابات شافية - يطلب أن «يرى» كالنبى إبراهيم، أو كالذى مرّ على القرية الخاوية - ويطلب أن يستقر عقله فيطمأن قلبه.

والتمرد ليس عصيانا، ولاإلحاداً، ولا كفرا، ولا يصدر عن فراغ، وإنما صدوره عن قيمة، لأن الإنسان المتمرد لم يعد يرى نفسه تابعاً ولا مقلدا، ويريد لوجوده وإيمانه أن يكون أصيلاً. واحترامه لنفسه هو الذى يدفعه إلى طلب المعرفة، وبالمعرفة يزيد وعيه فيكسر قيود العبودية ويطلب الحرية - أن يكون حراً فيؤمن بالله كإنسان حر لم تستعبده السوابق، ولا كان تابعاً لتفكير غيره، ولا مؤمناً عن تقليد.

والمتمرد الميتافيزيقي فى أول الأمر يريد أن يغيّر الأمور إلى ما ينبغى أن يكون عليه الأفضل والمنطقى والمعقول، ثم يستشعر الحرية فى نفسه، ويعطيه وقوفه على قدميه وتخليهً عن الركوع، ثقة أكبر فيتغير مطلوبه، ويريد أن تكون الأمور على ما يراها، وما يريدها أن تكون عليه.

وهذه الخطوات تضمّنها تمرد الخيام، فكان شعوره أولاً بأنه صغير مقهور، ثم رفضه ثانيا لوضعه العبودى الذى يرين عليه، والتسليم الأعمى الذى لا مبرر له، ثم إعلانه العصيان ثالثا، وانبعاثه قائما يواجه السماء ويناقش ويطلب أن يعرف، وأن تتغير الأوضاع، وأن يُعاد تشكيل الوجود للأفضل، فيتوفر الرزق للجميع، ولا يمرضون، ولايجهلون، ولا يموتون، ولا يكون هناك قضاء ولا قدر، ويعيش الكل فى نعيم مقيم.

وتمرد الخيام الميتافيزيقى نوع من الاحتجاج يقوم به إنسان ضد واقع مفروض على كل الناس.

والمتمرد الميتافيزيقى يحتج على وضعية الإنسان فى الكون، ويتوجه احتجاجه ضد عذاباته فى الحياة، والمظالم والشرور والآثام والأمراض والجهل والفقر والموت.

والمتمرد الميتافيزيقى كما يقول كامى لا ينكر وجود الله، ولكنه يثبته، ويطلب إليه تغيير الأوضاع. وما يترسمه للتغيير هو يوتوبيا أو أرض أحلام من صنعه هو، ترتفع فيها الوضعية القائمة، وتحل محلها أخرى أكثر عدلا وأجلّب للسعادة.

والتمرد الميتافيزيقى أنواع أيضا، والنوع الذى نحن بصدده - نوع الخيام - هو النوع الفنان المبدع الذى ينفعل بالتمرد، ويعبر بأدبه عما يجيش فى صدره من وجدانات وما يعتمل في عقلة من أفكار - وجدانات وأفكار تمرد، فيها عصيان ورفض للواقع. والمتمرد الميتافيزيقى

الفنان كالخيام يريد تغيير الواقع للأجمل ، ولكنه لا يغيّره بيديه، ولابالقوة، وإنما يغيّره بالفن، بأن يتصور الدنيا الجديدة ويطرحها خيالات وعبارات فى أدبه.

والمتمرد الميتافيزيقى من أجل ذلك شاعر، وسيجد نفسه يقول الشعر، يؤكد به قبح وبشاعة العالم ، ويخلق به الجمال و يتحدى الواقع ويجادله بالشعر، ويتعالى بالشعر عليه.

ويبدو أن الأدب العظيم والرفيع هو أدب المتمرد الذى يخلق به الفنان عالما آخر أسمى من هذا العالم، وإن كانت أقدامه مغروسة فى أرضه، إلا أن هامته مُشْرعة ومرفوعة صوب السماء....

وهكذا فيما يبدو كان أدب الخيام!

*****

opeikandl.com